الفصل الحادى عشر
على هامش نظريات التطور والارتقاء المادى

إنَّ داروين حاول جاهداً إثبات إنّ الإنسان نشأ من صورة دنيا هى أقرب إلى القردة العليا منها إلى أية صورة أخرى من صور الأحياء. ولإثبات ذلك فهو يرى أن من الحقائق التى لها دلالتها الواضحة القوية أن الإنسان مركب على نفس الغرار العام - وإن شئت فقل على نفس القالب - الذى انصبت فيه بقية الحيوانات ذوات الثدى " *Mammilla* "، كل العظام التى يتألف منها هيكله لها ما يماثلها فى القرد أو السعدان أو الصيل *Seal* أو الخفاش " *Ordinary bats* " وكذلك عضلاته وأعصابه وأوعيته الدّموية وأمعاؤه، والدّماغ من أهم الأعضاء جميعاً لا يند عن ذلك القانون كما أبان المُشَرِّح هكسلى وغيره من مشاهير المُشرّحين، ناسياً أو متجاهلاً أنّ دماغ الإنسان وحده من دون الأدمغة هو الدماغ الصالح للتفكير، فى حين أن بقية الأدمغة هى أدمغة غير صالحة للربط والتفكير. [1] ويستطرد الداروينيون فى تبريراتهم الواهية **فيقولون:**

(قد يتقبل الإنسان من حيوانات أحط منه، كما ينقل إليها أمراضاً معينة مثل: السعار[2] والذيبة والزهرى والكوليرا والهرس وغير ذلك، وهذه الحقيقة تقيم الدّليل على المشابهة بين الأنسجة والدّم سواء فى التّركيب أم فى التّكوين، على صورة من الوضوح والجلاء بحيث لا تبلغ إليها المقارنة بأقوى المجاهر أو أدق التحليلات الكيماوية)[3]

(*1*) المرجع، صفحة (53).
(*2*) السعار: داء الكَلَب.
(*3*) المرجع، صفحة (53).

أمـا السـعادين "النسـانيس" فهـى عرضـة للإصـابة بـنفس الأعراض غير المُعدية التى يتعرض لها الإنسان، ولقد عرف "ريخر" بعد أن عكف طويلاً على ملاحظة نوع منها وهو المسمى "الحَوْدَل الإزاري" فـى مواطنـه أن هـذا السـعدان كثيـر الاسـتجابة للزكـام "*Coryza*" بـنفس أعراضه المعروفة، وأنّ الزكام إذا عاوده فى فترات قريبة فقد يكون سبباً فـى إصـابته بالسّـل "*Tuberculosis* "، وتصـاب تلـك السـعادين أيضـاً بـأمراض: مـرض التهـاب الأمعـاء "*Enteritis* "، الحمـره "*Schweinerotlauf*" ومرض بياض العين "*Albugina ocali*". كما لاحظ أنّ صغارها قد تموت وهى تشقُّ أسنان اللّبن. وللعقاقير فيها نفس تأثيرها فى الإنسان. وكثير من السعادين تهوى شرب القهوة والشاى والمشروبات الكحولية، وتدخن الطباق بلذة متناهية. (1)

ويؤكد برهم أنّ سكان شرقى أفريقية يصطادون الرّبابيخ وهى جنس من السعادين الكبيرة بأن يَترُكوا بمقربة من مرابعها أوعية مفعمة ببوظة المريسة لتشرب منها حتى تثمل.

ويستطرد برهم أنه رأى بعض تلك السعادين وكانت مأسورة عنده فى مثل هذه الحال، ووصف من تصرفاتها وسلوكها وحركاتها ما يُضحِكُ وَيُسلِي، وأردف قائلاً: أنها فى صبيحة اليوم التالى كانت فى خُمار شديد، كظيمة خائرة القوى، تُمْسِكُ رؤوسها المصدعة بيديها معبرة عن آلامها بما يثير الشفقة بها والعطف عليها، فإذا قدّمت لها المريسة أو الخمر ثانية عافتها وتنكرت لها ورفضتها، واستحبت شراب الليمون. (2)

وعرف عن سعدان أمريكى من نوع الكهول خَمِرَ مَرَةً بشراب البراندى

---

(1) المرجع، صفحة (54).
(2) المرجع، صفحة (54).

فعافه ولم يمسه مرة أخرى، ويعلق الكاتب على ذلك الحادث قائلاً (فكان بذلك أعقَلَ من أبناء آدم)[1]

ويستدلون بأمثال تلك الحوادث على بساطتها بأنها تظهر إلى أى حد تصل المشابهة بين أعصاب الذّوق فى الإنسان وبين أعصاب الذّوق فى السعدان وعلى أى صورة من التماثل يتأثر الجهاز العصبى فى كليهما، وقد قمت بتفسير وتعليل أسباب تلك الظواهر فى فصل لاحقٍ من الكتاب تحت عنوان "الإدراك الفكرى والتمييز الغريزي" فيمكن الرجوع إليه لمن شاء. [2]

يغزو الإنسان طفيليات جوفية " *Entozoan* " كثيراً ما يكون لها آثاراً مهلكة، كما أنه يصاب بطفيليات خارجية "*Entophyte*"، وكلها ترتد إلى ذات الأجناس أو الفصائل التى تصيب غيره من الثدييات، وفى مرض الجرب "*Scabies*" تكون من نفس النَّوع فى كليهما، ويتعرَّض الإنسان كما تتعرض الحيوانات والطيور وحتى الحشرات لحكم تلك السُّنَة الخفية التى تسبب مظاهر سوية فى الأفراد كالحمل ونضوج حضانة بعض الأمراض ومداها، والجروح فى الإنسان تلتئم بنفس الطريقة التى تلتئم بها فى الحيوان، وكذلك الجذامير التى تتخلف بعد بتر بعض أطرافه وبخاصة فى بداية الطور الجنينى كثيراً ما تكون حائزة للقدرة على التّجدد كما يشاهد فى أحط صور الحيوان.[3]

مما تقدم يذهبون إلى أنَّ علاقة الإنسان بما هو أدنى منه فى عالم الحيوان هى علاقة تتجاوز وتتخطى حدُّ التّشابه الظاهري، بل تتخطى هذه العلاقة الظاهرية إلى علاقة النشأة والدّم والاستعداد الفسيولوجي، ويؤكد

(*1*) المرجع، صفحة (54).
(*2*) الباب الخامس - الفصل الثاني.
(*3*) المرجع، الصفحات (54 - 55).

فون بـاير " *Von Baer* " أنـه عنـدما يتقدم تخلّق الجنين البشـرى شيئاً ما تبدو أطرافه " اليدان والساقان " متخلقة على نفس الصـورة السّوية التـى تظهـر بهـا أرجـل العظايـا "السّـحالي" وذوات الثـدى وأجنحـة الطيـور وأرجلها. (1) ويستندون فى ذلك أيضاً إلى قول المُشَرّح بيشوف حيث يقول: (إنَّ تلافيف الدّماغ فى الجنين البشرى عندما يبلـغ الشـهر السـابع مـن العمـر يكون مماثلاً من حيث النّمـاء والتكوين لـدماغ الحبن(2) عند البلـوغ). (3) إلا أنَّ بيشـوف نفسـه يقـول: (مـن المسَلّم بـه أن كـل شـق وكـل طيـة فـى دمـاغ الإنسان لها ما يقابلها فى الأرطان(4) وهو نـوع مـن القردة، ولكـن دماغيهمـا لا يتماثلان فى أى طور من أطوار نمائهما، وذلك يعنـى عدم تماثلهمـا) إلـى أن يخلص إلى نتيجة عدم تماثلهما ليبرهن على تفارقهما أصلاً، وذلك يعنـى عدم تماثل القدرات العاقلة فى كليهما. (5)

أمّـا العـالم الطبيعـى الإنجليـزى "تومـاس هنـرى هكسـلي" وهـو عـالم تشريح أيضاً ومن أشهر من ناصر داروين فى الترويج لمذهبه فيقول: (فـى مدارج متقدمة من تطور الجنين البشرى تبدو الانحرافـات التـى تميزه عن جنين القرد، فـى حين أنَّ جنين القرد ينحـرف عن جنين الكلـب فـى تخلقه بمقدار مـا ينحـرف جنين الإنسـان عن جنين القرد، وبـالرغم ممـا فـى هذه الحقائق من الرّوعة البالغة فإنها حقائق ثابتة تؤيدها المشاهدة.)(6)

أمّـا العلامـة "ويمـان" فقد وجد أنّ إبهـام القدم فـى جنين بشـرى طولـه بوصة واحدة يكون أقصر من بقية الأصابع ويبرز منحرفاً عن القدم مكونـاً

---

(1) المرجع، صفحة (55).
(2) الحبن هو نوع من " القرود المشابهة للإنسان ".
(3) المرجع، صفحة (56).
(4) الأرطان: إنسان الغاب، وهو نوع من " القردة المشابهة للإنسان ".
(5) المرجع، الصفحات (53 - 56).
(6) المرجع، الصفحات (53 - 56).

فى انحرافه زاويةٌ حادّة مقدارها كنفس مقدار نفس الزاوية التى ينحرف بها عن إبهام القدم فى بقية الأصابع فى الأيودات التى هى القردة بِأجناسها الأربعة المعروفة (الغرلي، الشمزي، الأرطان والحبن). فى حين أنَّ المشرح المعروف ريتشارد أوين له رأى آخر فى ذلك وهو أن إبهام القدم فى الإنسان وهو مركز الاتزان عند الوقوف والمشى ربما يكون أخصُّ ترکيب تشريحى فيه. (1)

وخلاصة القول فى هذا الموضوع عند علاّمتهم هكسلى حيث يتساءل: هل يتولد الإنسان بأسلوب غير الأسلوب الذى تتولد فيه الكلاب والطيور والضفادع والأسماك وغيرها من ذوات الفقار؟ فيجيب على تساؤلاته قائلاً: (إنه لا يتردد لحظة واحدة فى القول بأن أسلوب التّولد البشرى وبخاصة فى خلال المدارج الأولى من تخلقة الجنينى مماثل تماماً للأسلوب الذى تتوالد فيه أجنّة غيره من الحيوانات التى تنزل عنه فى سلم التطور، وأنّ الإنسان من حيث علاقته النشوئية أقرب إلى القردة من علاقة القردة بجنس الكلاب، أى أن الفرجة بين الكلاب والقردة تتسع بينما تضيق بين الإنسان والقردة العليا)(2)

أما داروين نفسه فيقول: (إنّ نظام العظام لهو نفسه فى يد الإنسان وفى جناح الخفاش وفى زعنفة سلحفاة الماء وفى رجل الحصان، ونفس العدد من الفقرات هو فى رقبة الزرافة ورقبة الفيل، وحقائق أخرى لا تعد كلها تغدو مفسرة واضحة فى الحال على أساس نظرية التطور عن طريق التحولات الطفيفة البطيئة المتتابعة. وكذلك تشابه النظام بين جناح الخفاش ورجله رغم استعمالهما فى غرضين مختلفين، وبين فك سرطان البحر

---

(1) المرجع، الصفحات (53 - 56).
(2) المرجع، الصفحات (53 - 56).

ورجله، كلها يسهل فهمها على أساس

التحول التدريجى للأشياء وللأجزاء أو الأعضاء التى كانت متشابهة فى الأسلاف المبكرة فى طائفة من الطوائف)[1]

وتبريرات أخرى فى نفس الموضوع لتأكيد الأصل المشترك الواحد: (إنَّ التراكيب فى بعض الحيوانات لها أصل واحد، مثال ذلك الأطراف الخماسية الأصابع فى جميع فقاريات اليابسة نجدها مبنية على نظام واحد وإن كانت تختلف أحياناً فى الوظيفة التى تؤديها، ومثل تلك التراكيب تسمى بالتراكيب المتشابهة تركيبياً " *homologous structures* "، فجناح الخفاش ومجداف الحوت ورجل الكلب متشابهة تركيبياً وإن كانت تؤدى وظيفة واحدة هى المعاونة على الحركة ولكنها حركة تختلف من مثال لآخر، **الأول** فى الطيران **والثانى** فى السباحة والثالث فى المشي، وتختلف أجنحة الحشرات عن أجنحة الطيور والخفافيش اختلافا تاماً فى التراكيب ولكنها تتشابه فى الوظيفة وهى معاونة الحيوان على الطيران، ومثل تلك التراكيب المتشابهة وظيفياً " *analogous structures* " وغنى عن البيان أنها مختلفة الأصول، وهناك أمثلة لا حصر لها عن هذين النوعين من التراكيب.

فالتعرف على التراكيب المتشابهة تركيبياً دليل قوى على التشابه الأساسى فى التصميم، وهذا لا يمكن شرحه إلا بافتراض أنَّ الجماعات التى توجد بها هذه التراكيب لا بد أن تكون من اصل مشترك واحد. [2]

(*1*) المرجع، صفحة (765).
(*2*) دكتور فؤاد خليل وآخرين، علم الحيوان العام، صفحة (1102).

البهائم العجماء، هل تشترك مع الإنسان فى النّسَب والقرابة بالنشوء من أصل واحد؟